

قصة الشيعة

لن نستطيع أن نفهم المذهب الشيعي جيدا إلا إذا عرفنا قصة نشأة هذا المذهب وتطوره. وذلك لأن لهذا المذهب خصوصية تميزه عن مذهب السُّنة من حيث النشأة والتطور. فالمذهب المالكي أو الشافعي أو الحنبلي أو الحنفي بينها اختلافات ولكنها اختلافات في الفروع والفهم والتفسير للآيات والأحاديث وفي القياس والاستنباط، أي اختلافات في المنهج. ولم تكن هناك أسباب سياسية لهذه الاختلافات، أما الشيعة فهم في الأساس أصحاب نظرية في الحكم، وقد أثاروا خلافات شديدة وصلت إلى حد الحروب الدموية حول من هو الأحق بالخلافة.

فالشيعة في بدايتها كانت أقرب إلى الحزب السياسي المعارض للحزب الحاكم بالتعبير الحديث. لكنه حزب يصيغ مطلبه السياسي بصيغة دينية، فيبحث لها عن أدلة وأسانيد في الكتاب والسُّنة، ويرفض رواية الحديث من الفريق الآخر (فريق السُّنة) ويترتب على ذلك ظهور نظرية سياسية ملتبسة بالدين، أو مذهب ديني ملتبس بالسياسة، ثم نشأ له فقه خاص قد لا يختلف كثيرا عن فقه السُّنة عند الشيعة الإمامية والزيدية ولكنه يختلف كثيرا وإلى حد التناقض عند غيرهما من الفرق. وككل حركة معارضة سياسية دخل فيها كل من أراد محاربة السلطة الحاكمة، كما دخل فيها كل من أراد محاربة أهل السُّنة، بل وكل من أراد محاربة الإسلام من الداخل. ولذلك أصبحت ساحة الشيعة خليطا عجيبا من الكفر والإيمان، ومن الاتفاق والاختلاف، ومن الحقائق والأكاذيب، ومن العقل والخرافة، وهذا هو سر البلبلة التي عانى منها أهل السُّنة في علاقتهم بالشيعة بعد ذلك.

وأضيف إلى ذلك عاملان جعلوا الفهم والتفاهم بين السُّنَّة والشيعة من الأمور الصعبة. **العامل الأول:** هو أن بعض فرق الشيعة تحولت إلى فرق باطنية، تعمل في الخفاء، ولا تعلن أفكارها ومواقفها، وتتناقل سرا الأفكار والكتب بعيدا عن تناول أهل السُّنَّة، وهذا الغموض أدى إلى الشك والتباعد، ثم أدى إلى العدا، فوق ما كان قائما من عدا لأسباب سياسية.

والعامل الثاني: هو ما عرف عن مبدأ (التقية) عند الشيعة، وفهم أهل السُّنَّة أن هذا المبدأ يعنى أن الشيعي يظهر غير ما يبطن، وأن مسابرة له للآخر ليست عن اقتناع أو صدق، ولكنها مجرد تمويه، ولهذا أصبح أهل السُّنَّة لا يطمئنون إلى ما يقوله الشيعة لأنهم لا يستطيعون أن يفرقوا بين ما هو حق وصدق وبين ما هو (تقية). لكن مذهب الشيعة الآن مختلف.

فمن ناحية لم تعد الخلافات السياسية القديمة عاملا مؤثرا في العصر الحاضر، وهذا ما يجب أن يكون، إذ ليس مطروحا الآن أن يتولى حكم المسلمين واحد من آل البيت، ونحن في عصر الشعوب والديمقراطية والأحزاب والانتخابات، ولم يعد العقل المعاصر يتقبل توارث الحكم في نسل أسرة واحدة حتى ولو كانت من نسل النبي ﷺ خاصة وأن الرسول ﷺ نفسه هو الذي أعلن أن الأنبياء لا يورثون، كما ورد في الحديث الصحيح: "نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة.." فالخلاف إذن خلاف تاريخي ليس من العقل أو الحكمة أن نجعله يستمر أكثر من أربعة عشر قرنا بينما لا نستطيع تولية الإمام على أو الإمام الحسن أو الحسين الآن، وليس أماننا سبيل لتدارك الظلم الذي حاق بهم. ولا نستطيع أن نعزل أبا بكر وعمر وعثمان، وباختصار لا نستطيع أن نعيد عجلة التاريخ إلى الوراء.

ومن ناحية أخرى فقد تكشف الكثير من أسرار وخفايا الشيعة وأصبحت كتبهم منشورة ومتداولة، وأفكارهم معلومة، المعتدلة منها والمتطرفة، كما أن كتب وأفكار



السُّنَّةُ معروفة وممتاحة، المعتدلة منها والمتطرفة، وبالتالي لم يعد التخوف من (التقية) له ما يبرره.

ويضاف إلى ذلك أن كثيرا من علماء الشيعة قاموا ويقومون بعملية مراجعة شاملة سارت شوطا طيبا، وأعلنوا التخلي عن بعض الأفكار القديمة التي كانت وليدة ظروف وأسباب سياسية واجتماعية قديمة ترجع إلى القرون الأولى للإسلام، ولم تعد هذه الظروف والأسباب قائمة الآن، وهذه المراجعات أيضا منشورة في كتب متاحة للجميع. والحوزات العلمية في إيران والعراق تقترب في الفقه والتفسير من السُّنَّة يوما بعد يوم. كما أن أهل السُّنَّة يتفهمون ما في مذهب الشيعة الإمامية والزيدية مما يوافق الشرع ويمثل إضافة لإثراء الفقه الإسلامي، وهذا الاتجاه نحو التقارب يجد من يعارضه في صفوف الشيعة وفي صفوف السُّنَّة أيضا، ولكن الواجب يقتضى تشجيع هذا التيار، لأن التقريب بين المسلمين المختلفين من أهم الواجبات التي فرضها الله على المسلمين. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات آية ١٠) و ﴿وَلَا تَنَزَعُوا أَنفُسَكُمُوهَا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ (الأنفال آية ٤٦) وفي الحديث الشريف ”وكونوا عباد الله إخوانا“.... الخ.

□□□

وبداية الشيعة كانت في الخلاف حول من هو الأحق بالخلافة بعد الرسول ﷺ. فقد توفى الرسول ﷺ ولم يحدد بشكل قاطع صريح من يخلفه، ولم يبين كيفية اختيار من يحكم المسلمين بعده، وهذه حكمة بالغة، لأن وسائل الاختيار سوف تختلف من عصر إلى عصر، والإسلام جاء لكل العصور، ولكل الشعوب، ولهذا ترك أمور تنظيم الحكم لاجتهاد الناس وفقا للحديث الشريف ”أنتم أدرى بشئون دنياكم“. فإذا كان اختيار الحاكم في عصر باتفاق النخبة من أهل الحل والعقد فإنه سيأتي عصر يكون فيه الاختيار بالانتخاب المباشر الذى يشترك فيه الناس

جميعا وهكذا تختلف وسائل الاختيار من عصر لعصر ومن مجتمع لآخر وتبقى شروط الحاكم هي هي: العدل ومراعاة مصلحة الناس.

وكان من الطبيعي أن يحدث الاختلاف على الحكم بين المسلمين عقب وفاة الرسول ﷺ، وهذه مسألة ترجع إلى الطبيعة البشرية، فقد سارع الأنصار إلى عقد اجتماع في سقيفة بني ساعدة ليبتوا في الأمر، وأدركهم أبو بكر وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح، وفي هذا الموقف اختلف للجتمعون إلى فريقين، وهم جميعا من كبار الصحابة. فريق قال: يجب أن يكون الخليفة من الأنصار، ودلوا على ذلك بأن الرسول ﷺ أقام في مكة ثلاث عشرة سنة يدعو إلى الإسلام فلم يؤمن إلا قلة، ولم ينعوا الرسول ﷺ من الأذى، وبعد ذلك هاجر إلى المدينة فوجد النصير القوى من الأنصار.. آمنوا به.. ووفروا له الحماية.. وحاربوا معه.. واقتسموا أموالهم مع المهاجرين.. فهم أولى الناس بأن يخلفوه.

أما الفريق الآخر من المهاجرين فقالوا: إن الخلافة يجب أن تكون فيهم، لأنهم أول من آمن به، وأكثر من صبروا على الأذى، وهم قومه وعشيرته، وهم من قریش والعرب لا تدين إلا لهم. وكما هي العادة حاول البعض إيجاد حل وسط فظهر اقتراح بأن يكون من الأنصار أمير، ومن المهاجرين أمير، ورفض المهاجرون هذا الاقتراح، وحسم الخلاف عمر بن الخطاب حين أخذ بيد أبي بكر الصديق وأعلن البيعة له على أساس أنه أول من آمن من الرجال، وهو صاحب النبي ﷺ في رحلة الهجرة، وأنابه الرسول ﷺ عنه في الصلاة عندما كان مريضا مرض الموت، وانتهى الأمر بأن تقدم الجميع لمبايعة أبي بكر.

لكن الإمام عليا لم يكن حاضرا هذا الاجتماع لانشغاله في تجهيز الرسول ﷺ والإعداد لدفنه، وتكون رأى ثالث هو أن تكون الخلافة في بيت النبي ﷺ، وأقرب

الناس إليه هو الإمام عليّ، فهو أول الناس إسلاماً، وهو زوج السيدة فاطمة بنت النبي ﷺ، ومكانته في الجهاد والعلم بالدين لا يمكن إنكارها. وإذا قال المهاجرون إنهم قوم النبي وعشيرته فأهل بيت النبي ﷺ أولى. واستندوا إلى قول الله تعالى في سورة آل عمران ٣٣-٣٤: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ

عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ وَوَالِدًا وَآلًا سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾

وقالوا إن الرسول ﷺ هو الصفوة من نوح، وهو وارث علم آدم، وعليّ بن أبي طالب وصي محمد ووارث علمه، وجعلوا من هذه الآية دليلاً على أحقية ذرية الرسول ﷺ في الخلافة، وأن هذا الحق مقرر في الكتاب والسنة. وإن كان الإمام عليّ قد تأخر في مبايعة أبي بكر إلا أنه بايعه في النهاية وانتهى الاختلاف، ولكن أنصار هذه المواقف الثلاثة ظلوا مختلفين. الأنصار، والمهاجرون، وأهل البيت، وهذا الاختلاف تحول بعد ذلك إلى صراع سياسي ثم تحول إلى مأساة سفكت فيها دماء عزيزة وغالية، هي دماء الإمام عليّ والإمام الحسين وكثير من أهله جعلت هذا الاختلاف يتحول إلى ثأر تاريخي.

ولم يظهر الاختلاف في عهد أبي بكر وعمر، لانشغال المسلمين بالحروب والفتوح، ولرضا المسلمين عن حكمهما لما فيه من عدل وإنصاف. لكن الاختلاف تفجر بقوة ابتداء من عهد عثمان وظل يزداد اشتعالاً بعد مقتله. فقد كان عثمان من بنى أمية، واستعان بالأمويين، وتحركت الحساسيات القديمة التي كانت قبل الإسلام بين بنى هاشم وبنى أمية، ويصف أحمد أمين هذه الفترة في كتابه (فجر الإسلام) فيقول: انتشرت الجمعيات السرية في آخر عهد عثمان تدعو إلى خلعها وتولية غيره، ومن هذه الجمعيات من كانت تدعو إلى عليّ، ومن أشهر الدعاة له عبد الله بن سبأ - وكان من يهود اليمن فأسلم- وتنقل في البصرة والكوفة والشام ومصر وكان

يقول: (لكل نبي وصي، وعلى وصي محمد، فمن أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله ووثب على وصيته؟) ويقول أحمد أمين: إن عبد الله بن سبأ كان من أكبر الذين حرّضوا على قتل عثمان. ولما قُتل عثمان بايع كثير من المسلمين الإمام علياً بالخلافة، وأيده كثير من كبار المهاجرين، لكن طلحة وابن الزبير خرجا على عليّ وشاركوا في الإيعاز بأن الإمام عليا كان له ضلع في قتل عثمان وعلي أقل تقدير فإنه لم يبادر إلى نصرته وحمایته ممن قتلوه. كما أنه -بعد أن بويع بالخلافة- لم يقتصر من قتلة عثمان. ثم أعلن كل من طلحة والزبير أنه هو الأول بالمطالبة بدم عثمان لأن كلا منهما من الستة الذين اختارهم عمر للشورى. بينما قال معاوية إنه أولى الناس بعثمان، لأنه من أهل بيته. وأمام هذا الانشقاق وقف جماعة من كبار الصحابة بعيداً فلم يبايعوا علياً ولم يبايعوا غيره، وفضلوا العزلة، ومن أشهرهم عبد الله بن عمر بن الخطاب، وسعد بن أبي وقاص، وحسان بن ثابت، وأسامة بن زيد. وبعد ذلك انتهى أمر طلحة والزبير بانهما وقتلها في موقعة الجمل، وأما معاوية فكانت له جيوش في الشام، وخاض حرباً ضد عليّ في موقعة صفين، فلما أحس أن الدائرة كادت تدور عليه أمر جنوده برفع المصاحف على الرماح، وطلب التحكيم إلى كتاب الله. وهكذا كانت بداية النشأة لثلاث فرق من أكبر الفرق الإسلامية هي الخوارج، والشيعة، والمرجئة.

□□□

الخوارج قالوا: إن الإمام علياً أخطأ حين قبل التحكيم فقد اختار معاوية أن يمثله عمرو بن العاص، واختار علي أن يمثله أبو موسى الأشعري، واتفقا على أن يخلع كل منهما صاحبه، وبدأ أبو موسى الأشعري فأعلن أنه يخلع الإمام علياً، لكن عمرو ابن العاص قام فأعلن أنه يثبت معاوية خليفة للمسلمين، وظل الخوارج يعارضون

الإمام علياً لأنه قبل خديعة التحكيم ويتهمونه بالكفر ويرفعون شعار (لاحكم إلا الله) وأصبح اسمهم الخوارج لأنهم خرجوا على الإمام عليّ، وظل الخوارج شوكة في جنب الدولة الأموية وحاربوها حرباً متصلة، كما حاربوا الإمام علياً في موقعة النهروان وهزمهم وقتل منهم الكثير، وزادت هذه الهزيمة في كراهية الخوارج للإمام عليّ حتى دبّروا قتله، وفعلوا قتله عبد الرحمن بن ملجم وكان جيش الإمام عليّ قد قتل الكثير من أسرة زوجته في موقعة النهروان.

وكان أهم أفكار الخوارج هي: صحة خلافة أبي بكر وعمر والسنوات الأولى من خلافة عثمان، وصحة خلافة عليّ وأنه أخطأ في التحكيم ولهذا حكموا بكفره، وطعنوا في الصحابة الذين قاتلوا الإمام علياً في موقعة الجمل: السيدة عائشة، وطلحة، والزبير، وحكموا بكفر أبي موسى الأشعري وعمرو بن العاص. ووضعوا نظرية للخلافة هي أن تكون بالاختيار الحر بين المسلمين، ومن يختاره المسلمون لا يجوز أن يتنازل أو يقبل التحكيم، وليس من الضروري أن يكون الخليفة من قريش. وتحولت أفكار الخوارج بعد ذلك من أفكار تدور كلها حول الخلافة والسياسة إلى أفكار لها صبغة دينية، وقالوا: من آمن بالله ورسوله ولم يعمل بأوامر الدين من صلاة وصيام وزكاة وعدل فهو كافر. لأن العمل جزء من الإيمان، وخالفهم كثير من فقهاء السنة وقالوا بعدم جواز الحكم بالكفر على من ينطق بالشهادتين، وتارك الفروض مؤمن بالله ويعصى أوامره وأمامه باب التوبة مفتوح، وإن الله لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء.

□□□

والمرجئة أيضاً بدأت حزبا سياسيا، أعلن رفضه لهذه الاختلافات القائمة والحروب على الخلافة، ورفضوا الانحياز لفريق ضد فريق، كما رفضوا إصدار أحكام إدانة لفريق معين، وقالوا: نرجئ أمر الفريقين حتى يكون الله هو الذي يحكم بينهما.

وانتقلوا من المسألة السياسية إلى المسائل الدينية فأصبحت لهم أفكار خاصة بهم فى الدين، حول الإيمان، والكفر، ومن هو المؤمن ومن هو الكافر، بعد أن رأوا أن الخوارج يحكمون بالكفر على من يختلفون معهم، والشيعة كذلك، فزاد الخوارج وحكموا بأن كل كبيرة يرتكبها الإنسان هي كفر، وكان الاختلاف بين الفرق الإسلامية حول مرتكب الكبيرة هل هو كافر أو ليس كافرًا، سببًا فى فتنة أخرى. وقد دمرت الدولة العباسية هذه الطائفة.

□□□

فى هذا الوقت الذى اشتدت فيه اختلافات المسلمين، تبادل المسلمون الاتهام بالكفر، يرمى به بعضهم بعضا حتى إن الخوارج حكموا على الإمام علىّ ذاته بالكفر.. فى هذا الجو المضطرب الذى يصدق عليه وصف طه حسين له بأنه (الفتنة الكبرى) أصبحت الشيعة فرقة لها نظرية فى السياسة ذات صبغة دينية، والتبست السياسة بالدين وبالفقه، وظهرت فى داخل الشيعة فرق مختلفة، قالوا: إن الإمامة -أو الخلافة- ليست باختيار الأمة، بل هي ركن من أركان الدين، ولا يجوز لنبي أن يترك الأمة دون تحديد الإمام بعده، ويكون هذا الإمام معصوما من الخطأ، وأن النبي ﷺ هو الذى عين الإمام عليًا إماما بعده بنصوص وبأحاديث نبوية يذكرونها لا يقرها أهل السنة. ونشأت فكرة الوصية، ولقب الإمام علىّ بلقب (الوصي) وبعده فإن الإمام -أو الحاكم- يجب أن يكون من نسله، ولا يجوز أن يكون الإمام من غير أهل البيت.

وقد اتفقت الخوارج والشيعة على أن خلفاء بنى أمية مغتصبون للسلطة وظالمون لأهل البيت، فاشتروا فى معارضتهم، يحاربونهم جهرا إذا تمكنوا من ذلك، وفى الظروف التى لا تسمح لهم بمعارضتهم فى العلن فإنهم يحاربونهم فى السر، وفقا لمبدأ التقية. ولكن شدة الحذر من جانبهم جعلت بنى أمية يراقبونهم ويتخذون أقصى

درجات الحذر، ورصدوا أعوانهم لمتابعة تحركات وتجمعات الشيعة، واضطهدوا كل من عرف عنه الانتماء إلى هذه الفرقة، حتى الإمام الحسن سلطوا عليه من يطعنه بالخنجر في جنبه فأصيب ولم يمض وقت، وحاربوه حتى أعلن ابتعاده عن السياسة والخلافة، ثم قتلوا الإمام الحسين في موقعة كربلاء، ثم تتبعوا أهل البيت بالإهانة والقتل، وسجنوا كل من عرف عنه انتماءه للشيعة، إلى أن جاء الحجاج بن يوسف الثقفي فقتل منهم أعدادا كبيرة، وفي عهده قال الرواة (إن الرجل يقال له زنديق أو كافر أحب إليه من أن يقال إنه من شيعة عليّ). وينقل أحمد أمين أمثلة كثيرة على الاضطهاد الذي لا مثيل له الذي تعرض له الشيعة، من ذلك أن رجلا يقال إنه جد الأصمعي - وقف أمام الحجاج وقال: أيها الأمير، إن أهلي عقّوني فسموني عليا، وإني فقير بأئس، وأنا إلى صلة الأمير محتاج، فتضاحك الحجاج وولاه عملا، كما ينقل عن المدائني: (إن زياد بن سمية كان يتتبع الشيعة في الكوفة، وهو يعرفهم، لأنه كان منهم أيام عليّ، فقتلهم تحت كل حجر ومدبر، وأخافهم، وقطع الأيدي والأرجل، وسمل العيون، وصلبهم على جذوع النخيل، وطردهم من العراق وشردهم، فلم يبق منهم أحد. وكتب معاوية إلى عماله في جميع الآفاق بأن شهادة الشيعة وأهل بيت عليّ لا تقبل، وأمرهم أن يقربوا أنصار عثمان بن عفان وينشروا فضائله، وأن يبلغوه باسم كل من يروى فضائل ومناقب عثمان واسم أبيه وعشيرته، وفعل حكام الأقاليم ذلك فتنافس الناس في الإشادة بعثمان، وكتب معاوية إلى عماله: (انظروا إلى من قامت عليه البيعة أنه يحب عليا وأهل بيته فامحوه من الديوان، وأسقطوا عطاءه وورثته). وحتى بعد زوال دولة الأمويين ومجيء دولة العباسيين، اضطهد العباسيون الشيعة ونكلوا بهم بأكثر مما فعل الأمويون لأنهم كانوا يعلمون أسرارهم وخفاياهم عندما كانوا منضمين إليهم ويعملون معهم على إسقاط حكم بني أمية.

يقول أحمد أمين: إن هذه الاضطهادات كان من نتائجها لجوء الشيعة للسرية ونظامها، حتى أصبحوا أقدر الفرق الإسلامية على العمل في الخفاء والكتمان لكي يتمكنوا من عدوهم. وهذه السرية استلزمت الالتجاء إلى الرموز والتأويل. كما كان من أثر ذلك أيضا اصطبغ أدبهم بالحزن العميق، والنواح والبكاء، وذكر المصائب والآلام. واستخدموا السلاح الذي حاربهم به الأمويون، وكما وضع الأمويون أحاديث نسبوها إلى الرسول ﷺ عن فضائل الصحابة وخاصة عثمان بن عفان دون ذكر عليّ والهاشميين، فقد وضع الشيعة أحاديث نبوية كثيرة جدا في فضائل عليّ، وفي المهدي المنتظر، وفيما يؤيد مذهبهم، وفاقوا الأمويين في ذلك، وتخصص بعض علمائهم في علم الحديث وسموا (الثقات) وحفظوا الأسانيد الصحيحة، ثم وضعوا بهذه الأسانيد أحاديث تتفق ومذهبهم، ويقول أحمد أمين إنهم أضلوا بهذه الأحاديث كثيرا من العلماء لانخداعهم بالأسانيد، بل كان منهم من سُمى بالسُدى، ومنهم من سُمى بابن قتيبة، فكانوا يروون عن السدى وابن قتيبة، فيظن أهل السنة أنهم المحدثان الشهيران، مع أن السدى وابن قتيبة اللذين ينقل عنهما الشيعة الحديث إنما هما من الغلاة، وقد أدى ذلك بعلماء الحديث من أهل السنة إلى التمييز بينهما بنسبة الحديث إلى السدى الكبير أو السدى الصغير، الأول ثقة، والثاني من الذين اشتهروا بوضع الحديث ونسبته إلى الرسول ﷺ، وكذلك ابن قتيبة، فقد ميز علماء الحديث بينه وبين عبد الله بن مسلم بن قتيبة راوي الحديث الذي يثق أهل السنة في روايته.

كذلك وضع الشيعة الكتب وملئوها بتعاليم نسبوها إلى أئمة أهل السنة، مثل كتاب (سر العارفين) الذي نسبوه إلى الإمام الغزالي، ومن ذلك ما نراه في الكتب من المبالغات وإسناد كل فضل وكل علم إلى الإمام عليّ إما مباشرة وإما في ذريته.

حتى قالوا: إن واصل بن عطاء -إمام المعتزلة- تلقى العلم عن واحد من ذرية عليّ هو أبوهاشم عبدالله بن محمد بن الحنفية، وأن أبا هاشم تلقى العلم عن جده الذي كان تلميذا للإمام عليّ. وكذلك قالوا: إن فقه الإمام السنن أبي حنيفة مأخوذ عن جعفر الصادق، وإن مالك بن أنس قرأ على ربيعة الرأي الذي استمد علمه من سلسلة تتصل بالإمام عليّ. وإن فقه الإمام الشافعي يرجع إلى الإمام عليّ لأن الشافعي كان تلميذا للإمام مالك. بل قالوا: إن فقه عمر بن الخطاب يرجع إلى الإمام عليّ لأنه كان يرجع إليه فيما يشكل عليه من المسائل، ونسبوا إليه أنه كان يقول: لولا عليّ لهلك عمر. وكذلك اعتمدوا في تفسير القرآن على عبد الله بن عباس وقالوا: إنه أخذه عن عليّ، ورووا أنه قيل لابن عباس: أين علمك من علم ابن عمك (الإمام عليّ)؟ فقال: كنسبة قطرة من المطر إلى البحر للحيط. وقال الشيعة: إن أبا الأسود الدؤلي واضع علم النحو أخذ هذا العلم عن عليّ الذي أملى عليه: الكلام كله ثلاثة أشياء: اسم وفعل وحرف.. وعلمه تقسيم الاسم إلى معرفة ونكرة، وتقسيم الإعراب إلى رفع ونصب وجر وجزم، وهكذا لم يدع الشيعة علما إلا ونسبوا أصله إلى الإمام عليّ.



ومن الواضح أن أحمد أمين تحامل على الشيعة، وبالع في أمرهم حتى وصل إلى القول بأن التشيع كان مأوى يلجأ إليه كل من أراد هدم الإسلام لعداوة أو حقد، ومن كان يريد إدخال تعاليم آباءه من يهودية ونصرانية وزرادشتية وهندية، ومن كان يريد استقلال بلاده والخروج على الدولة الإسلامية.. كل هؤلاء كانوا يتخذون حب أهل البيت ستارا يضعون وراءه كل ما شاءت أهواؤهم.. ويرى أحمد أمين أن اليهودية ظهرت في التشيع بالقول بالرجعة، والقول بأن النار محرمة على الشيعة إلا قليلا، كما قال اليهود: ﴿لَنْ نَمَسَّنَا النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ (آل عمران-آية ٢٤)

والنصرانية ظهرت في التشيع في قول بعضهم إن نسبة الإمام على إلى الله كنسبة المسيح إلى الله، وقولهم إن اللاهوت اتحد بالناسوت في الإمام على، وإن النبوة والرسالة لم تنقطع بوفاة الرسول ﷺ ولن تنقطع أبداً، فمن اتحد في اللاهوت فهو نبي. وتحت ستار التشيع ظهر القول بتناسخ الأرواح، وتجسيم الله، والحلول، أى أن تحل الروح الإلهية في الإمام، ونحو ذلك من الأقوال التي كانت معروفة عند البراهمة والفلاسفة وللجوس قبل الإسلام، وتسخر بعض الفرس بالتشيع وحاربوا الدولة الأموية، بما في نفوسهم من كراهية للعرب ودولتهم، والسعى لاستقلالهم.

ويستشهد أحمد أمين بقول المقرئى: (اعلم أن السبب في خروج أكثر الطوائف عن ديانة الإسلام أن الفرس كانت لها سعة الملك وعلو اليد على جميع الأمم وجلالة الخطر على أنفسهم بحيث إنهم كانوا يسمون أنفسهم الأحرار والأسياد، وكانوا يعدون سائر الناس عبيدا لهم، فلما امتحنوا بزوال الدولة عنهم على أيدي العرب، وكان العرب في نظر الفرس أقل الأمم خطراً، تضاعفت لديهم المصيبة، وراموا كيد الإسلام بالحاربة في أوقات شتى.. فرأوا أن الحيلة أنجع، فأظهر قوم منهم الإسلام، واستمالوا أهل التشيع بإظهار محبة أهل البيت واستبشاع ظلم على، ثم سلكوا بهم مسالك شتى حتى أخرجوهم عن طريق الهدى).

ويشير أحمد أمين إلى قول المستشرق «ولهوسن» إن العقيدة الشيعية نبتت من اليهودية أكثر مما نبتت من الفارسية، ودليله على ذلك أن مؤسسها عبد الله بن سبأ يهودى. كما يشير إلى قول مستشرق آخر هو (دوزى) بأن أساس الشيعة فارسى، فالعرب تدين بالحرية، والفرس يدينون بالملك، وبالوراثة في البيت المالكة، ولا يعرفون معنى لانتخاب الخليفة، وقد مات محمد ﷺ ولم يترك ولداً، فأولى الناس بعده ابن عمه على بن أبى طالب، فمن أخذ الخلافة منه كأبى بكر وعمر وعثمان والأمويين فقد اغتصبها من مستحقها. وقد اعتاد الفرس أن ينظروا إلى الملك نظرة

فيها معنى إلهي، فنظروا هذه النظرة نفسها إلى عليّ وذريته، وقالوا: (إن طاعة الإمام أول واجب، وإن طاعته طاعة لله).

والرأى الذي توصل إليه أحمد أمين عن تأثير الفرس على التشيع يتناقض مع الحقيقة التاريخية وهي أن التشيع للإمام عليّ بدأ قبل دخول الفرس في الإسلام، ولكنه بدأ بداية ساذجة، بالقول بأن الإمام علياً أولى من غيره من ناحية كفايته وعلمه وجهاده في الإسلام، ومن الناحية الأخرى لقرابته للنبي ﷺ وقربه منه، والعرب من قديم تفخر بالرياسة وبيت الرياسة، لكن حزب الشيعة الذي نشأ بعد وفاة النبي ﷺ، ازداد نمواً بمرور الزمن وبالطاعن في عثمان، هذا التشيع أخذ -بعد ذلك- صبغة جديدة بدخول العناصر الأخرى في الإسلام من يهودية ونصرانية ومجوسية، وكل قوم من هؤلاء كانوا يصبغون التشيع بصبغة دينهم، وكان أكبر العناصر التي دخلت الإسلام العنصر الفارسي فكان من الطبيعي أن يكون لهم أكبر الأثر.

وقد بالغ الشيعة في القول في حب عليّ حتى جعله البعض منهم مساوياً لحب الله، ومن أشهر الأدباء، والشعراء الشيعة أبو الأسود الدؤلي، وله قصيدة يقول فيها:

بنو عم النبي وأقربوه أحب الناس كلهمو إلينا
أحبهم كحب الله حتى أجيء إذا بُعثتُ على هوبا

والشاعر المشهور كثير عزة كان شيعياً من الغلاة، ومن شعره في آل عليّ وأحقيتهم في خلافة الرسول ﷺ:

فإن هي لم تصلح لحي سواهمو إذا فذوو القربى أحق وأقرب

□□□

ومن يدرس تاريخ الشيعة وتعاليمهم فسيجد نفسه أمام أقوال كثيرة متضاربة ومتناقضة بشكل يثير الحيرة. فمن يؤيدون الشيعة يؤيدونهم بقوة، ويدافعون عن كل أعمالهم وأفكارهم، ويبررون الرجعة والتقية، وتقديس الأئمة، والقول بالمهدي

المنتظر، ولعن الخلفاء الراشدين على المنابر. ومن يعارضون الشيعة يلصقون بهم اتهامات كثيرة تصل إلى حد اتهامهم بالخروج على الإسلام ويستدلون على ذلك بقول البعض عن تأليه الإمام على أو نبوته أو اختلاط ما هو إلهي بما هو إنساني في شخص الأئمة، وقد امتلأت الكتب بأقوال الطائفتين، ولذلك يجب الحذر عند الرجوع إلى الكتب القديمة، وتناولها بمعايير النقد، والتحليل التاريخي والموضوعي، وإلا فسوف يجد الإنسان نفسه وقد وقع من حيث لا يدري في تصديق كتابات كانت تهدف إلى تحقيق مصالح سياسية أو شخصية.

فنحن نجد الباحث الباكستاني «إحسان إلهي ظهير» يقول في كتابه (الشيعة و السُنّة) إن عبدالله بن سبأ أراد مزاحمة هذا الدين بالنفاق والتظاهر بالإسلام لأنه عرف هو وذووه أنه لا يمكن محاربتة وجها لوجه، ولا الوقوف أمامه جيشا لجيش، فإن أسلافهم من اليهود: بنى قريظة، وبنى النضير، وبنى قينقاع جربوا هذا فرجعوا خاسرين، فخطط عبدالله بن سبأ هو ويهود صنعاء خطة ذهب بها هو ورفاقه إلى المدينة، عاصمة الخلافة، في عصر كان يحكم فيه عثمان بن عفان وهو صهر رسول الله ﷺ، وصاحبه، وهو الذي قال عنه الرسول إنه (ذو النورين) فبدءوا ينتظرون الفرصة، وجعلوا الإمام عليا ذريعة يتولونه ويتشيعون له ويتظاهرون بحبه، وعلى منهم برى، وظلوا يبثون في نفوس المسلمين سموم الفتنة والفساد ويحرضون على عثمان خليفة رسول الله الذي ساعد الإسلام والمسلمين بحاله كما لم يساعدهم أحد، فهو الذي تولى تجهيز الغزوات ومنها جيش العسرة حتى قال له الرسول ﷺ: «ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم»، أي إن هذا العمل يغفر لعثمان كل ما يعمل بعد ذلك، وقد بشر الرسول عثمان بالجنة مرات ومرات وأخبره بأنه سيموت شهيدا. لكن جماعة عبد الله بن سبأ ظلت تنشر في المسلمين عقائد تتنافى مع عقائد الإسلام، وكان هدفها الإضرار بالإسلام

والدس في تعاليمه والانتقام منه وسمت نفسها (الشيعة) لعلّى ولا علاقة لها به، وقد تبرأ منهم، وعذبهم في حياته، وأبعدهم بنوه ولكن الحقيقة غابت عن المسلمين مع مرور الزمن، وفازت اليهودية بعد ما وافقتها للجوسية من ناحية والهندوسية من ناحية أخرى وفازت بتحقيق مقاصدها وهي إبعاد أمة محمد ﷺ عن رسالته التي جاء بها. وقد اعترف كبار الشيعة ومؤرخوهم مثل «الكشّي» من علماء القرن الرابع قال في كتاب (معرفة الناقلين عن الأئمة الصادقين) الذي يعتبر من أصول الشيعة: ذكر بعض أهل العلم أن عبد الله بن سبأ كان يهودياً فأسلم، ووالى علياً عليه السلام، وكان يقول -وهو على يهوديته- في يوشع بن نون بالغلو، فقال في إسلامه بعد وفاة الرسول في عليّ مثل ما كان يقوله في يوشع بن نون، وكان أول من أشهر القول بأن إمامة عليّ فريضة من فرائض الإسلام، وقال بأن كل من يخالف ذلك كافر، وهذا ما يقوله غلاة الشيعة.

□□□

لكن الشيعة -على الجانب الآخر- يقولون شيئاً آخر، وفي كتاب للسيد «محمد باقر الصدر» وهو من علماء الشيعة عنوانه (التشيع ظاهرة طبيعية في إطار الدعوة الإسلامية) يقول: إن بعض الباحثين يرون التشيع ظاهرة طارئة في المجتمع الإسلامي، وإن القطاع الشيعي من جسم الأمة الإسلامية تكوّن على مر الزمن نتيجة أحداث وتطورات اجتماعية معينة، أدت إلى تكوين فكري ومذهبي خاص لجزء من ذلك الجسم الكبير ثم اتسع بالتدرج، ومنهم من يفترض أن عبد الله بن سبأ ونشاطه السياسي هو الأساس لقيام ذلك التكتل الشيعي. ودور عبد الله بن سبأ فيما يتعلق بالتشيع في نظر جمهور أهل السُنّة يكاد يكون حقيقة ثابتة، ولكن بعض الدراسات التاريخية الحديثة أثبتت عدم الوجود التاريخي لهذه الشخصية، وتعتبره من

الخرافات والأوهام، ويستشهد بالدكتور «أحمد محمد صبحي» الأستاذ بجامعة الإسكندرية في كتابه (نظرية الإمامة) الذي ذكر أن المستشرقين «فلهاوزن» و«فريد ليندر» توصلا إلى أن ابن سبأ شخصية من اختلاق المتأخرين. كما استشهد بقول طه حسين في كتابه (الفتنة الكبرى) الجزء الثاني: إن عبد الله بن سبأ لم يكن إلا وهما. واستشهد أيضا بالدكتور محمد كامل حسين الذي قال في كتابه (أدب مصر الفاطمية) إن قصة عبد الله بن سبأ أقرب إلى الخرافات منها إلى أي شيء آخر، وبالدكتور حامد حفني داود في مقدمته لكتاب (عبد الله بن سبأ) للسيد مرتضى العسكري طبعة بيروت: إن ابن سبأ من أعظم الأخطاء التاريخية التي أفلتت من زمام الباحثين، وغم عليهم أمرها، فلم يفقهوها ويفطنوا إليها.. هذه المفتريات التي افتروها على الشيعة حتى لفقوا عليهم قصة عبد الله بن سبأ فيما لفقوه واعتبروها مغزرا يغمزون به عليهم، ويستشهد أيضا بقول الشيخ محمد جواد مغنية -من كبار الباحثين الشيعة للجددين-: إن عبد الله بن سبأ هو البطل الأسطوري الذي اعتمد عليه كل من نسب إلى الشيعة ما ليس لهم به علم، وتكلم عنهم جهلا وخطأ، أو نفاقا وافتراء. ويستشهد أيضا بقول الدكتور عبد الله فياض: إن ابن سبأ كان شخصية أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة، وذلك في كتابه (تاريخ الإمامة) طبعة بغداد ويستشهد بغيرهم من الباحثين القدامى وللحديثين.

ويقول الدكتور على النشار-وهو من أهم الباحثين في فكر ومراجع الشيعة في كتابه (نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام):- إن مؤرخي الشيعة الأقدمين اعتبروا عبد الله بن سبأ حقيقة تاريخية لا شك فيها. وأنه كان أول من بدأ الطعن على أبي بكر وعمر وعثمان والصحابية وأعلن التبرؤ منهم، ولكن كاتب الشيعة الكبير المعاصر الدكتور على الوردى يقدم تحليلا لقصة عبد الله بن سبأ وينتهي إلى إنكار وجود هذه الشخصية إطلاقا وأنه شخصية وهمية نسبت إليها العقائد الناشرة المنتشرة في

كتب يلعنها أهل السنة والجماعة كما يلعنها الشيعة الإمامية أيضا، وقد انتهى الدكتور النشار من بحثه إلى احتمال أن تكون شخصية عبد الله بن سبأ شخصية مختلفة. وكذلك يستبعد السيد محمد باقر الصدر نظرية نشأة الشيعة على يد عبد الله بن سبأ. كما يستبعد إرجاع نشأة التشيع إلى عهد خلافة الإمام علي وما هياه من مقام سياسي واجتماعي على مسرح الأحداث، ثم يستبعد أن سبب ظهور الشيعة يرجع إلى أحداث سياسية متأخرة بعد مقتل الإمام علي والإمام الحسين. ويرى أن ما دعا إلى الافتراض بأن التشيع ظاهرة طارئة أن الشيعة كانوا في صدر الإسلام قلة قليلة، فأوحى ذلك بأن وجودهم استثناء من القاعدة. ويرى أن التشيع كان موجودا في عهد الرسول ﷺ دون أن توجد كلمة (الشيعة) في اللغة السائدة في ذلك الوقت، وأن التشيع كان يتمثل في حب النبي وأهل بيته وذريته والولاء لهم. وبالحماس للشيعة يقول السيد محمد باقر الصدر: إن أصول العقائد عند الشيعة محددة ومؤصلة بواسطة أمير المؤمنين علي نفسه، كما ذكر الشريف المرتضى في كتابه (الأمالي): اعلم أن أصول التوحيد والعدل مأخوذة من كلام أمير المؤمنين -صلوات الله عليه- وخطبه.. ولم تتبلور هذه الأصول عند أهل السنة إلا في القرن الرابع الهجري بواسطة أبي الحسن الأشعري المتوفى سنة ٣٢٤ هـ، وأبي منصور الماتريدي المتوفى سنة ٣٢٣ هـ، كما أن الشيعة كانوا أيضا أسبق من أهل السنة في الفروع الفقهية، وتأصيلها، حيث بدأ ذلك عند الشيعة بأمر المؤمنين عليه السلام، وتم تأصيله بواسطة الإمام جعفر الصادق الذي تتلمذ عليه لمدة سنتين أبو حنيفة النعمان صاحب أقدم المذاهب الفقهية السنية، وقد عر عن ذلك أبو حنيفة بقوله: (لولا السنن لهلك النعمان).



في الإجابة عن سؤال: كيف ولد التشيع؟ يقول السيد محمد باقر الصدر إنه ولد نتيجة طبيعية للإسلام، لأن النبي ﷺ كان يباشر قيادة انقلابية، وعملية تغيير

شامل للمجتمع ونظمه ومفاهيمه، وكان الطريق طويلا أمام عملية التغيير، فكان على الدعوة التي يمارسها النبي ﷺ أن تبدأ بإنسان الجاهلية فتنشئه إنشاءً جديداً وتجعل منه الإنسان الإسلامي، وكان لابد من مواصلة الطريق بعد وفاة النبي ﷺ، وكان أمام الرسول ﷺ أن يترك مستقبل الدعوة بعده للظروف والصدف وهذه السلبية لا يمكن افتراضها في النبي ﷺ، كما أن خطورة الموقف بعد وفاة النبي ﷺ لم تكن تخفى على خاتم الأنبياء، كما أن حرص النبي ﷺ على الدعوة كان يحتم أن يوحى عن خلفه.

والسيد محمد باقر الصدر يستبعد القول بأن الرسول ﷺ ترك الخلافة ليقررها المسلمون بالشورى، ويرى أن الرسول ﷺ لم يمارس عملية إعداد المسلمين للأخذ بنظام الشورى، ويغفل قول الرسول ﷺ في المواقف الحاسمة: «أيها الناس أشيروا عليّ». لكنه ينكر الشورى في دعوة الرسول وسلوكه ومنهجه ليصل إلى أن اتجاه الرسول ﷺ كان إلى خلافة أهل البيت وأنه أوصى بذلك وكان يتولى إعداد علي بن أبي طالب لهذه الخلافة.

أما طه حسين فيرى أن نشأة الشيعة كانت عقب مقتل عثمان والحيرة التي انتابت المسلمين. وكان الثائرون على عثمان قد ملئوا المدينة خوفاً ورعباً حتى إن دفن الخليفة المقتول تم في الليل. وكان لابد من وجود إمام في أسرع وقت قبل أن يرسل معاوية جيشه إلى المدينة ليخضعها لسلطانه ويعاقب الثائرين على ما فعلوا. وكانت الأهواء مختلفة: هوى أهل مصر مع عليّ، وهوى أهل الكوفة مع الزبير، وهوى أهل البصرة مع طلحة، وامتنع الثلاثة عن قبول الإمامة، واتجه الرأي إلى عليّ فتوجه إليه المهاجرون والأنصار يلحون عليه في قبول الإمامة ولم يجد عليّ سبيلاً للامتناع، فجلس للبيعة على منبر النبي كما جلس الخلفاء قبله وأقبل الناس. فبايعوه، ولكن البعض رفض أن يبايعه ومنهم سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر بن الخطاب

وطلحة والزبير وتمت البيعة لعلّى في المدينة بعد مقتل عثمان بخمسة أو ثمانية أيام حسب الروايات، واستقام الأمر لعلّى في الحجاز والكوفة والبصرة ومصر ولكن الشام كانت تحت حكم معاوية ابن عم عثمان. واشتعلت الخصومة القديمة بين بنى أمية وبنى هاشم، وظهرت ضغائن وصلت إلى حد اشتراك أم المؤمنين السيدة عائشة في قتال علّى في واقعة الجمل، ثم تلبية علّى لدعوة أهل العراق ومقتله هناك، ثم دعوة الإمام الحسين إلى العراق ومقتله هو وكثير من أهل البيت في ملحمة مليئة بالدم والقسوة. ومن هنا نشأت الشيعة وتكونت عقائد ومعتقدات نابعة من التعاطف والحب لأهل البيت والمبالغة في ذلك.

والدكتور عبد المنعم النمر يرى أن نشأة الشيعة جاءت بعد مقتل الحسين، فقد عاد الذين تخاذلوا عن نصرته وأسلموه لجيش يزيد يؤنبون أنفسهم فصار معظمهم أشد التصاقا بأهل البيت عما كانوا عليه من قبل تعويضاً عن خطيئتهم وناصروا الأمويين العداء، والفرس الذين أسلموا عن صدق أو تظاهر واعتقدوا أن الحكم يجب أن يستمر في آل البيت كما يستمر الملك، فجعلهم ما حدث فتحمسوا أكثر لآل البيت صدقاً أو تظاهراً، ووجد الحاقدون فرصة لتنفيذ خططهم المسمومة ضد الإسلام في هذا الجو.

وفى تحليل العقاد لأسباب ظهور الشيعة في كتابه (عبقريّة الإمام) يقول: إن في سيرة على بن أبى طالب ملتقى الواقع بالخيال، فهو الشجاع الذى نزعته به الشاعرية الإنسانية منزع الحقيقة ومنزع التخيل، ألم يحارب المردة فى فلواتها؟ ألم يخلق له الرواة أندادا من البارزين لم يخلقهم الله؟ ألم يستصغر عليه للحبون المغالون فى الحب أن يصرع خصومه فانشئوا له من الخصوم المغلوبين من لم يعرفهم ولم يعرفوه؟ ألم يوشك من وصفوه ووصفوا وقعاته أن يلحقوه بأبطال الأساطير؟ وتلتقى سيرته بالفكر كما تلتقى بالخيال والعاطفة لأنه صاحب آراء فى

التصوف والشريعة والأخلاق سبقت جميع الآراء فى الثقافة الإسلامية، ولذوق الأدبى -أو الذوق الفنى- ملتقى بسيرته كملتقى الفكر والخيال والعاطفة لأنه كان أديبا بليغا له نهج فى الأدب والبلاغة يقتدى به المقتدون.. لذلك ظهر الغلو فى حبه والغلو فى العداة له، وبلغ حب بعضهم أن رفعوه إلى مرتبة الآلهة، وبلغ من كراهة بعضهم إياه أن حكموا عليه بالمروق من الدين.

أما أستاذنا الشيخ محمد أبو زهرة فإنه يرى أن البيت العلوى بعد مقتل الشهيد ابن الشهيد وأبى الشهداء الحسين بن على رضى الله عنهما، انصرف آل البيت إلى العلم النبوى يتدارسونه وبعثوا عن السياسة لأنهم ذاقوا مرارتها، فعلى زين العابدين كان إمام المدينة نبلاً وعلما، وابنه محمد الباقر كان وريثه فى إمامة العلم ونبل الهداية، وكان ممن يزوره علماء من الذين يتشيعون لآل البيت وعلماء من أهل السنة، وكان يقصده بعض المنحرفين الغلاة فى تشيعهم الذين أفرطوا فكان يبين لهم الحق، فإن اهدوا أخذ بيدهم إلى الحق الكامل، وإن استمروا على غيرهم صدهم وأخرجهم من مجلسه، وكان يقصده من أئمة الفقه والحديث كثيرون منهم سفيان الثورى، وسفيان بن عيينه محدث مكة، ومنهم أبو حنيفة فقيه العراق.

وقد راجت حول الإمام على والأئمة من بعده أساطير فيها مبالغات كثيرة، يقول البغدادى فى كتابه (الفرق بين الفرق): إن عبد الله بن سبأ زعم بعد مقتل الإمام على أن المقتول لم يكن عليا، وإنما كان شيطانا تصور للناس فى صورة على، أما الإمام على فقد صعد إلى السماء كما صعد عيسى بن مريم عليه السلام، وكذبت الخوارج فى دعواها قتل على، والقائلون بقتل على إنما رأوا قتيلا يشبهه فظنوا أنه هو بينما على صعد فى السماء وسينزل إلى الدنيا وينتقم من أعدائه.. وأنه لا يموت حتى يسوق العرب بعصاه، كما قادهم بحجته وبرهانه، وإنه يسمع النجوى، ويلمع فى الظلام.

هذا بعض ما ينسب إلى عبد الله بن سبأ، وسواء كان شخصية حقيقية أم وهمية فقد كانت هناك فرقة اسمها (السبئية) نسبة إلى عبد الله بن سبأ، قالت ذلك وقالت

ما هو أكثر.. قالت إن عليا إله العالمين، وإنه توارى عن خلقه سخطا منه عليهم وسيظهر بعد ذلك، وقال البعض منهم إن عليا فى السحاب، وأن الرعد صوته، والبرق سوطه، وكانوا إذا رأوا السحاب أو سمعوا صوت الرعد قالوا: السلام عليك يا أمير المؤمنين.

ويرى الدكتور النشار أن هذه ليست سوى آراء فولكلورية محمّلة بالحشو اليهودى التى تنتشر عادة لتمجيد الأبطال الكبار حين يموتون ويشعر أتباعهم بالحسرة عليهم، وقد كاد عمر بن الخطاب أن يقع فى ذلك حين قيل له إن الرسول ﷺ انتقل إلى الرفيق الأعلى فأعلن أن محمدا لم يمت، وإنما رُفِعَ إلى السماء، وسيعود ثانية، قائلاً: والله ما مات رسول الله ولا يموت، وإنما تغيّب كما غاب موسى أربعين ليلة ثم يعود، والله لأقطعن أيدي قوم وأرجلهم.. لكن أبا بكر أسكته بقوله: (من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت) ثم قرأ قوله تعالى فى سورة آل عمران الآية ١٤٤: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ فرجع الناس إلى قول أبى بكر، وقال عمر: (والله لكأنى ما قرأتها قط ثم قال: لعمرى لقد أيقنت أنك ميت، ولكن أبدى الذى قلته الجزع).

□□□

وهكذا بدأت قصة الشيعة بحب النبى وآل بيته، ثم تحول الإمام على فى نظر محبيه إلى أسطورة، ثم أصبح الإمام الحسين بطلا لأساطير كثيرة، ودخل فى الشيعة من ليس منهم منتهزا فرصة معارضتهم للحكم القائم ليدس أفكارا ومعتقدات ليست من التشيع وليست من الإسلام، وهؤلاء هم الذين أساءوا إلى الشيعة حين ظن أهل السنّة أن هذه الأقوال الغريبة هى أقوال الشيعة جميعا.

ولذلك فإن قصة الشيعة معقدة، من أراد أن يفهمها عليه أن يكون رقيقا ومتفهما للظروف والدوافع، ويكون قادرا على التمييز بين ما هو من مذهب الشيعة وما هو

دخيل ومدسوس عليهم، وأن يفرق بين فكر المذهب الآن وأفكار فرق قديمة ضالة، كانت تدعى أنها من الشيعة وقد اندثرت وبقي ذكرها في الكتب القديمة يرجع إليها من يريد أن يسىء إلى الشيعة جميعا.

وفى النهاية فإن من آمن بالله ربا، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً ورسولاً، ولم ينكر أو يتنكر لأركان الإسلام الخمسة، فهو مسلم. وهذا ما ينطبق على الشيعة الإمامية والزيدية، وإن كانت لهم آراء تخالف آراء أهل السنة في قضايا معينة فإن حسابهم وحسابنا أمام الله وحده.